المحاضرة الثالثة: حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم

أولا: محمّد ﷺ من المولد إلى البعثة

1- النّسب

لقد اختار الله عزّ وجل هذا الرّسول من أمَّة وسطًا بين الأمم، وجعله من قُرَيْش أفْضل قبائل العرب وأوْسطها وأشرفها، ومركزها مهْوى أفْئدتهم جميعا منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال تعالى: {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ }[i]، ثم جعل نسبه في أشرفها، حيث لا يوجد بيْن أجداده من وُلد من سفاح أو غيره، أو يُطْعَن في نسبه أو يُعاب، وأجْمعَ النّسابة على نسبه صلى الله عليه وسلم العدنانيّ، وعدّوا أجْداده إلى عدْنان، واختلفوا فيما بعد عدنان إلى إبراهيم عليه السلام، ومن إبراهيم إلى آدم عليه السلام فجلّه من تأليف أهل الكتاب لذا سنقف في نسبه عند عدنان، قال الله عز وجلّ في محكم تنزيله:" { اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}"[ii].

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بم مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر(وهو قريش الذي تنسب إليه القبيلة) بن مالك بن النّضْر بن كنانة بن خُزيمة بن مُدرِكة بن إلياس من مُضَر بن نزار بن مَعَد بن عدنان بن أُد بن مقوِّم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يَشْجُب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمان عليهما السلام[iii]،

مولد النُّور ﷺ

حملت آمنة بنت وهب الزّهرية برسول الله صلى الله عليه وسلم من زوجها عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي بعد أن بنى عليها، وقد قال ﷺ عن نفسه:" أنا دعْوة أبي إبراهيم، وبُشْرى أخي عيسى، ورأتْ أمّي حين حملتْ بي أنّه خرج منْها نورٌ أضاء لها قصور الشام"[iv]، ولكنّ أباه عبد الله لم يلْبث أن توفّي ولم تزدْ مدّة حمله عليه الصلاة والسلام عن الشّهرين، وقال آخرون أنّ عبد الله توفّي ومحمّد ﷺ لم يُكمل الثّلاث سنوات[v]، وقد توفّي عبد الله بيثْرب عند أخْواله بني النجار

حين وفَد عليهم وهو عائد من الشّام في تجارة له، واستقبل جدّه عبد المطّلب ميلاد حفيده باستبْشار وجذل، لعلّه رأى في مقْدمه عوضًا عن ابنه الذي هصرت المنُون شبابه، وقد أُلْهم عبد المطلب حين سمّى مولوده "محمّدًا" إذ لم يكن العرب يأْلفون هذا الاسم، ولما سُئل عن ذلك قال :"أردتُّ أن يحمده الله في السماء، وأن يحمده الخلق في الارض"، وفي رواية ابن إسحاق أن أمّه آمنة كانت تحدّث أنها أُتيت في منامها لمّا حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنكِ حملتِ بسيّد هذه الأمّة فإذا وقع بالأرض قولي: "أعيذه بالوحد من شرّ كلّ حاسد ثمّ سمّيه محمّدا"[vi].

وهكذا فقد وُلد الرسول الأكرم من أسْرة زاكية المعْدن نبيلة النّسب، قال النبي الأكرم ﷺ عن نفسه:" إنّما خرجت من نكاح ولم أخرج من سِفاحٍ، من لَدُن آدمَ لم يُصِبني من سفاح أهل الجاهلية شيءٌ، لم أخْرُج إلا من طُهْرةٍ"[vii]، وهكذا جمعت أسْرته الطاهرة خلاصة ما في العرب من فضائل، وترفّعت عمّا يشينهم من أوضار، وقد أخْبر صلى الله عليه وسلّم عن اصطفاء الله لأسْرته فقال :"إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[viii]، وروى ابن سعد في طبقاته أن النبي ﷺ قال:" قسم الله الأرض نصفين، فجعلني في خيرهما، ثم قسّم النصف على ثلاثة فكنت في خيْر ثلثٍ منها، ثم اختار العرب من الناس، ثم اخْتار قريشًا من العرب، ثم اختار بني هاشم من قريشٍ، ثم اختار بني عبد المطّلب من بني هاشم، ثم اختارني من بني عبد المطّلب"[ix].

والمجمَع عليه أنّ الرسول الأكرم وُلد يوم الاثنين في ربيع الأول من عام الفيل، وهو ما رجّحه المؤرخ خليفة بن خياط ووافقه ابن كثير[x]، واختُلف في اليوم بين اليوم التاسع واليوم الثاني عشر والراجح عند الفلكيين هو الرأي الأول[xi].

2- الرضاعة والنشأة

عاش الرسول الأكرم ﷺ يتيمًا، وكان ذلك لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، فهذا اليتيم كان يُعَدّ لأمر جللٍ، سُخّرت له كلّ الوسائل والإمكانات الربّانية لإتمام قدَر الله وإبلاغ نعمة الله من اصطنعه الله، وأقْبلت آمنة على ابنها تحْنو عليه في انتظار المراضع المقْبلات من البادية، يلْتمسن تربية أبناء الأشراف، فأقْبلت على إرضاعه حليمة ابنة أبي ذؤيب، من قبيلة بني سعد، وما إنْ أخذت محمّدا حتى حلّت البركة بها وببيتها وبكلّ ما تملكه[xii]، فنشأ الرسول الأكرم ﷺ في

بادية بني سعد حيث الطبيعة والهواء الطلق والفطرة الزكية، وهناك وقعت للصبيّ المبارك حادثة شقّ الصدر، فبعْد مكوثه بينهم خمس سنوات، أتاه الملك جبريل عليه السلام ورسول الله يلْعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقّ عن قلبه فاستخرج منه علقه، فقال :هذا حظّ الشيطان منك، ثم غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم ثم لأَمَه، ثم أعاده إلى مكانه، ولمّا سمعت حليمة من الغلْمان بما جرى لمحمّد، أسْرعت به إلى أمّه وأهله بمكّة، خوفا من عاقبة ما جرى له، ولمّا حكَت حليمة القصّة لآمنة، قالت لها في ثقة وثبات :" كلاّ والله ما للشّيطان عليه من سبيل وإنّ لبنيّ لشيئا، أفلا أخبرك خبره، قالت حليمة: بلى، قالت: رأيت حين حملْتُ به، فو الله ما رأيت من حمْلٍ قط، كان أخفَّ ولا أيْسر منه، ووقع حين ولدتُّه وإنه لواضع يديْه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك، وانطلقي راشدة"[xiii].

لم يلْبث محمّد ﷺ عند أمّه إلاّ قليلا، حتّى سارت به إلى يثْرب لزيارة أقْربائه وقبْر أبيه، وشاءت الأقدار أن يتوفّى الله أمّه أثناء عوْدتها ببلدة الأبواء، ليكون الرسول الأكرم أنْموذجا لكلّ يتيم، ومثلا لكلّ فقير من جهة، ولكيْلا يكون لأحد فضْل في نشْأته وتكْوينه وفي عبقريته.

انتقلت كفالة الرسول الأكرمﷺ بعد وفاة أمّه آمنة إلى جدّه عبد المطّلب، وحضنته بركة أمّ أيمن التي ورثها من أبيه فكانت أمًّا له، وقد نشأ محمّد عليه الصلاة والسلام في بيت الوجاهة والسّيادة إذْ كان جدّه سيّد قريش وشيْخها المُطاع، غير أنّ هذه الكفالة لم تطُلْ؛ إذ مات عبد المطّلب والرسول الأكرمﷺ لم يبلغ الثامنة من عمره، فانتقلت الكفالة إلى عمّه أبي طالب، وكان أبو طالب يحبّه حبًّا جمًّا، فهو ذكرى شقيقه عبد الله، ووصيّة أبيه عبد المطّلب، خاصة بعد ما رأى منه من الأدب والأخلاق والنّجابة ما رأى، فكان على ذلك يفضّله على أبنائه، كما كان سنده بعد بعْثته، إذ ظلّ فوق الأربعين سنة يعزّ جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله[xiv].

3- العمل والزواج

تبدأ مرحلة جديدة من حياة محمّد ﷺ في بيت عمّه أبي طالب، يمكن تسميتها بمرحلة بناء الذّات والاعتماد على النفس، إذ لم يرِدِ محمّدﷺ أن يكون عالة على عمّه كثير العيال، فاقتحم ميدان العمل منذ نعومة أظافره، وقد ابتدر هذه المرحلة برعي الغنم قال صلى الله عليه وسلم:" ما

بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم، فقال أصحابه، وأنت؟، فقال : نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكّة"، وقال أيضا: " بُعث موسى عليه السلام وهو راعي غنم، وبُعث داوود عليه السلام وهو راعي غنم، وبُعثتُ وأنا أَرْعى غنم أهلي بأجْياد"[xv]، ولما بلغ الثانية عشر من عمره خرج مع عمّه في تجارة إلى الشام، وفي رحلته تلك التقى عمّه بالراهب بحيرى الذي رأى علامات النّبوة في محمد عليه الصلاة والسلام[xvi]، وقد أنكر أهل العلم تلك القصة واعتبروها من نسج أهل الكتاب تمهيدا للطّعن في نبوّة محمد، إذ حاول بعض المستشرقين أن يبني على هذه القصة اتهامات زائفة زعموا فيها أن النبي الأكرم قد تلقّى علم التوراة عن الراهب بحيرى، والسؤال الذي يطرح نفسه كيف بمن يعتبرون أنفسهم عقلانيون منطقيون تنويريّون أن يدخلوا في مجازفة علمية يحاولون من خلالها إقناع غيرهم بأن صبيًّا أمِّيًّا لا يحسن القراءة والكتابة، وهو في الثانية عشرة من عمره، يتلقّى علم التوراة في ساعة الطعام، ناهيك عن حاجز اللغة إذ لا توراة ولا إنجيل باللغة العربية في تلك الفترة؟ أيُعقل هذا؟، كما أنّ الروايات اضطربت في تحديد ديانة بحيرا، فمنهم من ذهب إلى كونه نصرانيًّا ومنهم من قال بيهوديته، كلّ ذلك يوحي إلى اختلاق تلك القصة من قبل من يريد الطعن في نبوة محمد ﷺ، وعبثًّا فعلوا، والله سبحانه وتعالى يقول:" {يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }[xvii].

وخلال تلك المرحلة اشتهر محمد ﷺ بالصدق والأمانة حتى لقّبه قومُه بالصّادق الأمين، ورضُوا به حكمًا في وضْع الحجر الأسود في مكانه، عند بنائهم للكعبة الشريفة، بعد أن أصابها سيل عارم، وقالوا:" هذا محمّد الأمين رضيناه حكمًا"[xviii]، ولمّا وصل خبر أمانته إلى السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب –أحد أجداد النبيﷺ–، وكانت امرأة تاجرة ذاتُ شرفٍ ومالٍ، تستأجر الرجال لتجارتها، بعثتْ إليه وعرضتْ عليه أن يخرج في مالها إلى الشّام، فقبل ذلك وخرج مع غلامها مَيْسرة، فكان الرّبْح وفيرا، وأخبر ميسرة السيدة خديجة بما رأى من خلق محمّد وأمانته، وأنّه رجل لا كالرجال، فزاد إعجابها به حتى أنّها لم تتمالك نفسها في عرض الزواج منه، وأرسلت تخطبه لنفسها، وكان آنذاك في عمر خمس وعشرين سنة، واختلف في عمرها من بين الثمانية والعشرين إلى الأربعين، فعند ابن سعد أربعين سنة[xix]، وعند الحاكم خمس وثلاثين سنة، وعند ابن إسحاق ثمانية وعشرين سنة، ووافقه ابن عساكر على ذلك[xx]، وقد زوّجها عمّها عمرو بن أسد، إذ أنّ أباها خويلد مات قبل الفَجار[xxi]،

فعقد عليها رسول الله على عشرين بكْرة، وقد ولدَت له كلّ أولاده عدا إبراهيم، وأوّلهم القاسم، الذي لُقّب به ﷺ، ثمّ زينب، ورقية، وأمّ كلثوم، وفاطمة، وعبد الله، ومات بنوه كلّهم إلاّ البنات فقد أدركن الاسلام، فأسلمن وهاجرن، وقد أدركتْهنّ الوفاة في حياة النبي ﷺ إلاّ فاطمة فقد لحقت به بعد بستة أشهر[xxii].

عاش محمّدﷺ قبل بعثته في رعايةٍ من الله له، فكان عليه ﷺ طرازا رفيعا من الفكر الصّائب، والنّظر السّديد، ونال حظّا وافرًا من حسْن الفطنة، وأصالة الفكرة، وسداد الوسيلة والهدف، وكان يحبّذ الصّمت الطويل، والخُلْوة والتفكّر والتدبّر، وكان بمنأى عن خرافات قومه وشذوذهم الفكري، وذلك جانبٌ من تدبير الله له، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض وشوائب الأهل والقوم نقطةَ تحوّل لاستعداده لما ينتظره من الأمر العظيم والأمانة الكبرى والهدف الأسْمى؛ وهو تغيير وجْه الأرض وتعديل خطّ التاريخ.

---

[i] قرآن كريم: سورة إبراهيم، آية 37.
[ii] قرآن كريم: سورة الأنعام، آية 124.
[iii] ابن هشام: السيرة النبوية، ج1/ ص15-16 . ابن حزم: جوامع السيرة النبوية، تحقيق عبد الكريم سامي الجندي، دار الكتب العلمية، ، بيروت، ط1، 2002، ص9.
[iv] ابن هشام: السيرة النبوية، ج1/ص191.
[v] ابن حزم: جوامع السيرة النبوية، ص10.
[vi] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج1/ ص355.
[vii] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1/ ص42-43.
[viii] محمد الغزالي: فقه السيرة، ط6، 1965، ص58.
[ix] ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج1/ ص4.
[x] خليفة بن خيّاط العصفري(ت240هـ): تاريخ خليفة بن خياط(رواية بقي بن خالد)، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،1414هـ/ 1993م، ص26. ابن كثير: البداية والنهاية، ج3/ ص380.
[xi] محمد بن عبد الله العوشن: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، دار طيبة، ص
[xii] ابن كثير: البداية والنهاية، ج3/ ص410.
[xiii] ابن هشام: السيرة النبوية، ج1/ ص190.
[xiv] ابن كثير: البداية والنهاية، ج4/ ص106. صفي الرحمان المباركفوري: الرحيق المختوم، ص64. محمود شاكر: التاريخ الاسلامي، السيرة، ج2/ ص36.
[xv] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1/ ص103.
[xvi] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1/ص99.
[xvii] قرآن كريم: سورة الصف، آية 8
[xviii] محمود شاكر: التاريخ الاسلامي، السيرة، ج2/ ص40.
[xix] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1/ ص109.
[xx] محمد بن عبد الله العوشن: ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، دار طيبة، ص18-19.
[xxi] ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج1/ ص110.
[xxii] صفي الرحمان المباركفوري: الرحيق المختوم، ص67.